سيمياء الشخصية والحدث في رواية الرماد الذي غسل الماء

أ/ الوافي سامي

قسم اللغة والأدب العربي جامعة أم البواقي–الجزائر–

الملخص

تحليل البنية السردية لرواية الرماد الذي غسل الماء يُظهِرُ لنا ومنذ البداية انقسام شخصياتها بين رؤيتين لنوعين من العلاقات بينهما، والتي ستنشأ بين طرفين متضادين هنا هما:السلطة / المجتمع = المثقف، من أجل موضوع قيمة.

"رواية الرماد الذي غسل الماء" رواية جزائرية فتية،تصبُّ أحداثها كلها في مصب واحد وهو الصراع بين: **المجتمع / السلطة / المثقف**، جاءت مُقسمة إلى أربعة أسفار كل سِفرٍ ضُمِّن بحواشٍ، هي بمثابة شروحات وتفسيرات لما جاء في المتن، ورغم هذا التقسيم نجد أجزاءها متلاحمة بطريقة جعلت منها مقطعا واحدا حيث "كل مقطع سردي قادر على أن يكون بمفرده حكاية مستقلة وأن تكون له غايته الخاصة به، لكن يمكن أن يُدرج ضمن حكاية أعم وأن يؤدي وظيفة خاصة"[1] وهذا يُعطي المجال أكثر لانفتاح الأحداث وترك الفرصة لكامل شخصيات الرواية في الظهور وأخذ نصيبها من المشاركة، لتتداخل الشخصيات هنا مشكلة بالإضافة لمناجاتها حوارية، كون "التعارض القائم بين الحواري والمونولوجي يتراجع،مفسحا المكان لانشقاق داخلي يصيب الحواري الذي يتخذ هيئات مختلفة"[2]، بين صديق وعدو وبين اتصال وانفصال، وهذا ما سيتبين لنا لاحقا.

ومن خلال تحليل البنية السردية لرواية الرماد الذي غسل الماء يظهر لنا ومنذ البداية انقسام شخصياتها بين رؤيتين لنوعين من العلاقات بينهما، والخاضعة لـ "العمليات التحويلية المؤدية إلى تَمليك العامل الذات موضوعا أو حرمانه منه، وهذا التمليك أو الحرمان يؤدي إلى بنية للصراع"[3] والتي ستنشأ بين طرفين متضادين هنا هما:**السلطة / المجتمع = المثقف**، من أجل موضوع قيمة.

ولتوضيح العملية أكثر سنقوم بعرض موجز للمنظور الذي يتبناه كل طرف في الصراع:

1-منظور السلطة:

ويمثل هذا المنظور هنا كل من الشخصيات الآتية: (عزيزة الجنرال)، (الجنرال) صاحب الملهى (مختار الدابة) رئيس البلدية، الطبيب (فيصل)، الضابط (سعدون) ...، لنبدأ بشخصية (عزيزة الجنرال) والتي تعتمد في حياتها على مبدأ نقد وكره السلطة الذكورية، لتهيمن بذلك وعبر فضاء الرواية السلطة الأنثوية على حساب السلطة الذكورية، وهذا واضح من خلال قول الراوي وهو يصف حال (فواز بوطويل) "... مُدلَّل كثيرا من أمه التي تسيطر على الأسرة بشخصية فولاذية"[4]، حيث يحمل الفعل 'تُسيطر' في هذا الملفوظ شُحنة دلالية تحوي في العمق بُعدا سلطويا فرضته (عزيزة الجنرال) على الكل في مدينة عين الرماد بما فيها عائلتها المكونة من الزوج (سالم بوطويل) والأبناء (فواز) و(فريدة) و(نورة)، لنلمس بذلك التوجه الصريح لهذه الشخصية في النزوع إلى حب السلطة والنفوذ ولو على حساب الآخرين، لتخلق بذلك برنامجا سرديا خاصا بها يخضع لمبدأ تبجيل الذات على الآخر، لتتحكم بذلك –كشخصية رئيسية– بالسرد، لتقوده وتسيره إلى الوجهة التي تختارها هي لنرى إلى الأحداث وبقية شخصيات الرواية من خلالها وعبرها، لتكون نتيجة هذا التحكم سلبية وغير متوازنة لـ "تبرز بوضوح داخل حقل عباري يمنحها وضعا ومكانة [حيث] يُرتِّب علاقاتها الممكنة بالماضي ويفتح أمامها مستقبلا مُحتملا"[5]، خاصة فيما يتعلق بالماضي الذي عاشته أيام طفولتها وهي ترى والدها كالوحش يضرب أمها دون رحمة

ولا شفقة حتى وفاتها لتترسخ هذه الصورة في ذاكرتها وتبقى نقطة سوداء في حياتها سبَّبَت لها كره الرجال كافة، لتقرر فرض سيطرتها على الآخر (الذكور) تهيمن باسم سلطة جُنوسية، إذ أن "اصطدام الرغبات والتصورات والصراعات التي تعاش على الصعيد النفسي تفضي إليها، فيصير التحكم في السرد تَحَكُّمًا في الآخر"[6]، وهذا ما تحقق لها بفرضها تحكمها على سكان مدينة عين الرماد وحتى على عائلتها خاصة (سالم بوطويل)، يقول الراوي واصفا تسلطها "حين انسلَّ (سالم) و(فواز) إلى غرفتيهما ارتمت (عزيزة) فوق سريرها الوفير لاعنة في نفسها مجتمع الرجال الذي يقمع المرأة ويقطف منها حقَّ فعل ما كَلَّفت به زوجها ... وشتَّان بين امرأة من حديد ورجل باهت الرجولة ... وانكفأت على وجهها تتذكر أباها وحشا له مخالب وأنياب يمص دم أمها، وهي تنتفض كغزال لا حول لها ولا قوة ... وأجهشت تبكي"[7]، ليكتسي الرجوع إلى الماضي في هذا الملفوظ أهمية بالغة في توجيه الأحداث،كونه المحرك الذي يحقق الترابط التاريخي على الصعيد النفسي بالنسبة لشخصية (عزيزة الجنرال)، لِيُكَرِّس التقاء الماضي بالحاضر غلق قناة الاتصال بالآخر (المجتمع الذكوري) وخلق صراع قائم بين الفئتين المتضادتين الإناث والذكور.

وتأسيسا على ما سبق نقول أن في استعادة الماضي تكمن الحقيقة المشكلة من الدلالة التي تعطيها الأحداث ككره (عزيزة) للرجال مردُّه أسباب تاريخية تعود لأيام طفولتها التعيسة التي عاشتها مع أب سلطوي تفنن في تعذيب أمها، لتترسب في ذاكرتها مشاهد عدة أصبحت مع مرور الزمن نقطة سوداء في حياتها وجزءا من تكوينها النفسي المتأزم والذي أَثَّر سلبا على من حولها خاصة عائلتها، فنجدها تقول لابنها (فواز) وكلها ثقة " ... أُمُّك خير من ألف رجل واللعنة على الرجال"[8]، حيث يدل هذا الملفوظ السردي على استراتيجية (عزيزة الجنرال) في التحكم والتسيير على مستوى شؤون العائلة سواء الداخلية أو الخارجية والتي معناها اكتمال أهليتها واستعدادها لمشروعها السردي، لنلاحظ أن وجوب الفعل Devoir – Faire الذي تبنَّته هذه الشخصية كمبدأ يقترن ضمنيا بالقدرة على الفعل Pouvoir – Faire والذي بدوره يتضح من خلال عدة ملفوظات سردية وردت في الرواية والتي منها قول الراوي واصفا هيمنة (عزيزة الجنرال) وسيطرتها على مستوى الأسرة "حين نزلت (عزيزة الجنرال) كانت وردة تبكي بكاء حارا مُرَدِّدَة لفظة ماما، وكان (سالم) يُجهدُ نفسه لإسكاتها يُحاول إغراءها بكل ما يملك وما لا يملك وقد أربكه عودة (عزيزة الجنرال) بسرعة ..."[9] فالسيطرة التي امتلكتها مهَّدت لها الطريق لتكوين أهلية (كفاءة) تُحقق لها ما تصبوا إليه من أجل إنجاح برنامجها السردي، لأن لفظة 'أربكه' تدل على تحكمها وسيطرتها في زمام الأمور على مستوى العائلة لدرجة أصبح فيها زوجها (سالم العلواني) مجرد ظل لا دور له في إدارة شؤون الأسرة واتخاذ القرارات، حيث يقول الراوي واصفا حال (فواز) وكله تعجب من حال والده "كان (فواز) يعجب حين يسمع الآية * الرجال قوَّامون على النساء * وينتصب في ذهنه سؤال كبير: إذن فلماذا تشتم أمي أبي (سالم)؟ ولماذا تصيح في وجهه فلا يملك إلاَّ أن يسكت؟"[10]، لتتسع دائرة نفوذها أكثر مُشتملة مدينة عين الرماد وذلك بتمويهها ومخادعتها للرأي العام (سكان مدينة عين الرماد المسؤولين، الأجانب ...)،

مُحاولة خلق صورة لها زائفة تبين مدى اهتمامها بالجانب الإنساني والثقافي في المدينة، يقول الراوي "تحت شعار بالثقافة والفن تتقدم الشعوب والأمم تُشرف (عزيزة الجنرال) شخصيا وبحر مالها على سهرات الصيف، تدخل بذلك البهجة على قلوب أبناء مدينتها وقد منحتها البلدية وسام الوفاء اعترافا بفضلها على مدينة عين الرماد"[11]، وهذا ما يظهر منها فقط كون باطنها كله شر وسوء، فهي تسعى من هذا كله لخدمة مصالحها وزيادة نفوذها وسطوتها لا غير كاستخدامها للأعمال الخيرية واجهة لتزيد من خلالها قوتها، وفعلها "يقوم على تقديم العون ساع في اتجاه الرغبة"[12]، يقول الراوي مبينا موقف سليمان العامل لديها في المزرعة منها "وراح سليمان يشرح لزوجته أن (عزيزة) تحمل ورائها سرا ما ... الدليل أنها شر فكيف تصنع خيرا في النصارى؟ وهل أشفقت على المسلمين حتى تُشفق على المسيحيين؟ وراء (عزيزة الجنرال) سر ... ما هو؟ أقلُّه طمعها في المسؤولين وطمعها في الأجانب ..."[13]، لتتكشَّف حقيقتها أكثر في محاولاتها الاستيلاء على مدرسة وتحويلها إلى مشروع تجاري خاص بها، وتدليسها للحقائق خلال سعيها في إبعاد التهمة عن ابنها (فواز بوطويل) وإلصاقها بالغير تفاديا لتدنيس اسم العائلة رغم ارتكابه للجُرم، لتتحقق صورة الجشع بكل أبعادها الدالة في هذا المقطع السردي بقول الراوي "بعدها بأشهر استولت (عزيزة الجنرال) على مدرسة قديمة وسط لتشيد فيها دار ضخمة ..."[14]، لتُسخِّر نفسها وصية على كامل سكان مدينة عين الرماد بطريقة تُنم على إرادة قوية وخبث لخدمة الذات وفقط، لتُؤسِّسَ بذلك برنامجا سرديا وتُنصِّب نفسها فاعلا فيه، ويكون الغاية منه استثمار أي شيء يعود بالفائدة لها ولعائلتها، ونجد من استثماراتها شخصية (الجنرال) صاحب ملهى الحمراء، والتي هي شخصية غائبة جسديا حاضرة على لسان شخصيات الرواية لما تمثله من قوة وسلطة ونفوذ تلجأ إليها (عزيزة الجنرال) كلما وقعت في مشكل أو احتاجت، حيث يقول الراوي "ضاقت الدنيا في عيني (عزيزة) منذ أُبقي (فواز) في الحجز وراحت تُجري اتصالاتها مع الرؤوس الكبيرة التي تعرفها ... وفي المساء تغير كل شيء، لقد أُطلق سراح (فواز) معزّزا مكرّما ... وأدرك (سعدون) أن يد (عزيزة) أطول مما توقع وأن القانون فعلا تحت بعض الناس ... قيل إنَّ (عزيزة) قد ذهبت للجنرال طلبا للمساعدة"[15] لتُشكّل (عزيزة الجنرال) هنا بتواطؤها مع شخصيات عدة نافذة نقطة سوداء بالنسبة للضابط (سعدون) لذي يمثل السلطة العادلة التي تهدف إلى إبراز الحق وتحقيقه مهما كلّفه ذلك من جهد ووقت، وهو الذي يُمثل بالنسبة لـ(عزيزة الجنرال) وأمثالها عقبة كؤود يجب إزاحتها وإبعادها عن الطريق بأي طريقة، لأنه عزم على إظهار الحقيقية وكشف المتسبب لها حيث يقول "... لكن الشرطة لا تنسى ويجب أن تنصر الحق ... نحن صوت الضحية ... وهي تصرخ في داخلنا: أنصفوني"[16]، ففي هذا المقطع السردي تتبيَّن جدِّية الضابط (سعدون) كفاعل مُنفِّذ في برنامجه السردي الضديد من خلال إصراره وتفانيه في إظهار الحق ونشر العدل، وهو ما صعَّب عليه عمله في مدينة عين الرماد الخاضعة لمبدأ القوي يأكل الضعيف وذلك في قول الطبيب (فيصل) مهدئا من خوف (عزيزة الجنرال) بعد سجن ابنها (فواز) "(عزيزة) جبل لا تهزه العواصف ... بسيطة ... فعلنا أكثر من هذا ... الوطن قائم على التزوير ..."[17]، ليكون الضابط (سعدون) قد رمِي وسط محيط شديد العفونة وموغل في الجشع والاستغلال ومتمحور حول صراع القوة (السلطة) والمجتمع لنجد "خطاب النفوذ يحظى بأهمية قصوى

ويلعب دورا حيويا في تشكيل ملامح الشخصيات وبناء أحداث الرواية"[18]، لتبدأ الرواية مرحلة الاضطراب التي يقف وراءه: **المجتمع / السلطة / المثقف** لتحتل مع هذا الوضع عدة فواعل –كُلٌ ومركزه– دور المنَفِّذ في نامج السردي الخاص بهم، حيث حاولت (عزيزة الجنرال) كفاعل مُنفِّذ Sujet opérateur تأسيس برنامجها الخاص والتي ترمي من خلاله لفرض سيطرتها على مدينة عين الرماد بصفة عامة وعائلتها بصفة خاصة، وذلك بحشدها أكبر عدد ممكن من المساعدين لبرنامجها، فنجد منهمشخصية (الجنرال) صاحب الملهى الذي تحدثنا عنه سابقا وشخصية الطبيب (فيصل) المتواطئ معها في التزوير وطمس الحقائق والذي كُشف أمره في الأخير من طرف الضابط (سعدون)، حيث يقول "...الطب مهنة إنسانية نبيلة راقية لا تعدِلُها إلاَّ مهنة التعليم...وسكتنا...غرق الضابط في تقليب أوراق الملف التي كانت أمامه...وكان (فيصل) يلوك في ذهنه ما سمعه مؤولا كل كلمة منه...لقد سَلَّمت لـ(فواز بوطويل) شهادة تُثبت أنه دخل المصحة ابتداء من الرابعة وأكَّدتَ ذلك في كل سجلات المصحة وثبت لدينا أن (فواز بوطويل) قضى مساء ذلك اليوم في ملهى الحمراء"[19]، إذ سخَّر الفاعل المساعد الممثل في شخصية الطبيب (فيصل) سُلطته في المشفى لخدمة (عزيزة الجنرال) بالطرق المشروعة والغير مشروعة من أجل التقرب منها وكسب ولائها ورضاها كونها ولية نعمته وصاحبة الفضل لما وصل إليه.

ليحتل في خضم هذا التوتر الضابط (سعدون) موقعا مهما كفاعل مُنفذ في برنامج سردي ضديد يرمي من خلاله إلى إرساء دعائم العدالة الاجتماعية والدفاع عن الحقوق الشرعية لكل فرد وإظهار الحق، وهذه الأسباب لا تخرج في جميع الحالات عن حدود الأهلية La compétence التي يمتلكها ليكون توجهه كالآتي:

–الأهلية ⟵ (وجوب الفعل/وجوب تطبيق العدالة) ⟵ القدرة على الفعل/القدرة على تطبيق العدالة) ⟵ الأداء.

إذ مع إجراءه لتحقيقه في قضية مقتل (عزوز) واختفاء جثته ينشأ موضوع جهة جديد بالنسبة للضابط (سعدون)، ويشكل دخوله فيه بتوليه التحقيق في القضية زيادة بناء قدرته على إحراز العدل وتحقيقه، ليفضي هذا إلى زيادة أهليته في اتجاه الوصول إلى الحقيقة التي بَدَت مُتذبذبة بسبب اشتمال شُكوكه عدَّة شخصيات منها أصدقاء (عزوز المرنيني) الضحية و(كريم السامعي) الشاهد على وجود الجثة و(فواز بوطويل) مُرتكب الجريمة الحقيقي، ومحاولا ربط الخيوط بعضها ببعض للوصول إلى الحقيقة وبمسعاه هذا في محاولته إحلال الحق يَظهر دوره العاملي واضحا في جميع الحالات بوضعه عقد إلزامي يخضع له جميع سكان مدينة عين الرماد المسؤول عنهم، وذلك بتطبيق القانون على الجميع ليضع نفسه وجها لوجه أمام (عزيزة الجنرال) في الأخير بعد توصله لإثباتات تدين (فواز بوطويل) بجريمة قتل (عزوز)، حيث يقول الراوي مُبينا ردة فعل (عزيزة الجنرال) "ضاقت الدنيا في عيني (عزيزة) منذ أُبقي في الحجز، وراحت تُجري اتصالاتها مع الرؤوس الكبيرة ... ورجعت إلى البيت وقد تغير لونها فزعا ورعبا"[20].

فشخصية الضابط (سعدون) في مسعاها لتطبيق القانون على الكل قامت بتسليط العقوبة على (فواز بوطويل) وتبرأت ذمة (كريم السامعي) الذي أتهم زورا وبهتانا بسبب (عزيزة الجنرال)، كونه خرق القانون واستحق الزج به في السجن، لترفض أُمه (عزيزة الجنرال) رفضا قاطعا تطبيق القانون عليها وعلى أسرتها لتُسخِّر كافة إمكانياتها من مساعدين ضد الضابط (سعدون)، ليكون بالنسبة للطرفين تبليغ المعرفة مرهون في وجوده إلى جهة أساسية في أهلية الضابط (سعدون) والتي هي 'الوجوب'، أي وجوب تطبيق القانون على الكل والذي شكَّل بالنسبة لـ(عزيزة الجنرال) فاعل ضديد يهدد برنامجها السردي لتقرِّر الانتقام لنفسها منه وذلك مرهون كذلك بوجود جهة أساسية بنت عليه أهليتها، وهي جهة السلطة النافذة التي تلجأ لها وقت الحاجة والتي انتصرت في الأخير انتصارا مؤقتا، ليُقِرّ الضابط (سعدون) بقوتها، إذ يقول الراوي "وفي المساء تغير كل شيء، لقد أُطلق سراح (فواز) مُعزَّزا مُكرَّما ووصل الضابط (سعدون) أمر بالانتقال إلى الصحراء بعيدا عن مدينته بمئات الأميال ... وأدرك (سعدون) أن يد (عزيزة) أطول مما توقع وأن القانون فعلا تحت بعض الناس"[21].

ليكون هذا الوضع بمثابة مُحصِّلة للعملية التحويلية المنتجة للوضع النهائي، والتي من خلالها سيتم إعادة بناء المعطيات في الأخير بواسطة الأفعال التي أسهمت بشكل أو بآخر في إفراز وضع نهائي أدى في جميع الحالات إلى كشف (عزيزة الجنرال) متلبسة بجرمها، ليكون الإنجاز من حليف الضابط (سعدون) في الأخير، وجزاء (عزيزة الجنرال) هو كما يصفه الراوي قائلا "وفاجأها جمع غفير: الضابط (سعدون)، (بدرة)، (نوارة)، (سمير)، و ... فاضطربت ... وراح المحيطون بها ينبشون القبر وراحت تدفعهم بقوة نائحة باكية مهددة الجميع بأسوأ العقاب ... ولم تمض إلاَّ ساعة من الزمن حتى ارتخت (عزيزة الجنرال) تعبة عاجزة ... وتسلل أحدهم إلى القبر وأخرج الجثة فمددها على الأرض"[22]، إذ مع انتشار إشاعة ظهور (عزوز) بعد مرور سنين على اختفاءه إلى مدينة عين الرماد اختلطت أوراق شخصيات عدَّة منها (عزيزة الجنرال)، لتُحاول قطع الشك باليقين بذهابها إلى مكان دفنها الجثة ليُكتشف أمرها، كون الإشاعة ما هي إلاَّ مقلب وضع لكشف الجاني الحقيقي، لتقع (عزيزة الجنرال) في المقلب في الأخير وبحضور ضحاياها كلهم، لتأخذ الأحداث بعد ذلك مجراها في اتجاه خلق التوازن الذي يبعث على الأمل والحياة، خاصة بعد هروب (عزيزة الجنرال) واختفاءها دون رجعة، يقول الراوي "تناقلت الأنباء أن (عزيزة) اختفت من المدينة بأسرها وكأنها فص ملح داهمته الأمواج العاتية ... وأن الناس ظلُّوا الأيام الطوال ينتظرون المحاكمة دون جدوى"[23].

بالأحداث التي وقعت كلها أحدثت في الأخير وضعا جديدا اتسم بالاستقرار والذي يُعدُّ مُحصِّلة نهائية للبرنامج السردي الضديد الذي قام به (سعدون) بمساعدة سكان مدينة عين الرماد، كونه فاعل منفِّذ سعى إلى تطبيق القانون وإظهار الحق والذي كَلَّفهُ في الأخير حياته، لقول الراوي "وتناقلوا أنَّ أيادي السوء والجريمة قد امتدت إلى (سعدون) الضابط فاغتالته وعلَّقوا جُثته في ساحة المدينة"[24].

في هذا المقطع السردي نجد إرادة الضابط (سعدون) في إحلال العدل والعمل بيد نظيفة قد قوبلت بالرفض والذي هو بمثابة إنذار أوَّلي جاء من عند معارضين له ولسياسته النزيهة، والممثلون هنا في شخصيات : (الجنرال) / (عزيزة الجنرال) / الطبيب (فيصل) ... والتي تتمثل وظيفتهم في الوقوف كحائل في وجهه بغية عدم تحقيق موضوع الرغبة، لأنه "يقوم على خلق عراقيل بمعارضته سواء لتحقيق الرغبة أو الاتصال بالموضوع"[25]، ليؤسِّس لنفسه برنامجا ضديدًا غير مبالي بالتهديدات التي يتعرض لها، هذا البرنامج الغاية منه قمع كل مشروع سلطوي يبنى على الفساد، رغم علمه المسبق بالعواقب الوخيمة التي تنتظره، ليتضح ذلك في قول (عزيزة الجنرال) "... الضابط (سعدون) وراء كل هذه الهموم، هو لا يدرك أنَّ يَدَيَّ طويلة، سيجد نفسه في أعماق الصحراء"[26]، لنفهم من هنا أن موقف (عزيزة الجنرال) بر من جهة على حالة الغضب التي ألَمَّت بها، ومن جهة أخرى يتضمن دلالة على فعل كلامي أرادت من خلاله إقناع الآخر (الضابط سعدون) بالخطر المحدق به، ليكون المضمون الدلالي للتهديد قد جاء في صورة إنذار، وخرق معناه سوء العاقبة، وهو ما كان جزاء Sanction الضابط (سعدون) في الأخير.

2-منظور المجتمع:

ويمثل هذا المنظور سكان مدينة عين الرماد، كشخصية (كريم السامعي) التي تحتل وضعا مركزيا في صلب الأحداث وتطورها، والتي تشكَّلت أساسا من علاقاته المتنوعة بداية باكتشافه الجثة مرمية على قارعة الطريق مرورا بتبليغه الشرطة بالأمر، ليتولى إثرها الضابط (سعدون) تحقيقه وصولا عند اتهامه زورا بارتكاب الجريمة والزج به في السجن بعد وشاية (عزيزة الجنرال) الكاذبة به، لنلاحظ أن الدور العاملي لهذه الشخصية يتزامن مع حضوره المكثَّف بداية باكتشافه أمر الجثة لقول الراوي "ظلَّ (كريم السامعي) يُغالب ظنًّا يُلِحُّ على نفسه إلحاحا مُقلقا ... ما الذي رآه ممتدا يمين الطريق؟ أهو جثة إنسان طوحت به سيارة مجنونة ... أم غُدِرَ به ورُمِيَ على قارعة الطريق؟"[27]، ففي هذا اللحظة المهمة من السرد تبدأ مُغامرة (كريم السامعي)، والذي يمثل بدوره خيط الربط بين جميع الأحداث التي ستحدث لاحقا، خاصة بعد اهتمام (عزيزة الجنرال) به وبالموضوع الذي أثاره بخصوص جثة (عزوز المرنيني) المختفية، لتدخل مُعترك الأحداث معهم بصفة صديق ومساعد ظاهريا فقط لأنها في الخفاء تُضمر لهم مكيدة خاصة: (كريم السامعي) / (بدرة السامعي) / (فاتح اليحياوي) = (المثقف المتأزم) / (سمير المرنيني) أخو (عزوز) الضحية ... لتبدأ ربط الصلة أولا بخطبة (بدرة السامعي) لأبنها (فواز)، بقولها "حسبتُ الأمر جيدا ورأيت أنَّ زواجك الآن ضروري ... وجدتُ لك عروسة تليق بالمقام ... (بدرة) بنت الشيخ (خليفة) أُخت (كريم) ..."[28]، ليكون غرض (عزيزة الجنرال) هنا مبني على المصلحة الذاتية لا غير، أولا بتقوية علاقاتها في المدينة لكسب الرأي العام وحشده لصالحها، وثانيا لإبعاد الشبهة عن ابنها (فواز) الذي عملت المستحيل لأجله ولأجل اسم العائلة، لتقوم بعدها بالخطوة الثانية وهي التقرب من (كريم السامعي) ذاته بطريقة توحي في الظاهر أنها معه لكن في الخفاء تُحضِّر له مكيدة وهو لا يعلم، وذلك في قولها "أنا خَيِّرة كل الناس يعرفون عليّ ذلك وأنا مستعدة

أن أنفق كل مالي من أجل الخير، كوَّنتُ هذه الأيام جمعية خيرية وأنت يا (كريم) واحد من العائلة، وأنا مُستعدة أن أدعمك لتكون فنانا كبيرا ... بل ولأدعم الحركة الثقافية في المدينة ..."[29]، إذ نرى لجوء (عزيزة الجنرال) إلى استعمال مستواها المعارفي = القوة المادية (تسخير مالها في خدمة الثقافة) والقوة العقلية (استعمالها الحيلة مع كريم السامعي)، كل هذا من أجل إنجاح مشروعها، لتُشكل بهذا رهانا حقيقيا بالنسبة لها كفاعل منفذ لقيامها بتثبيت اتصال مباشر مع (كريم السامعي) في إطار عقد ائتماني هو في الحقيقة خدعة وحيلة للإيقاع به لا غير، والذي تم من خلاله إشراك هذا الأخير في الأعمال الثقافية التي تقوم بها لتُحكم السيطرة عليه، وفي هذه اللحظة السردية تفقد أخته (بدرة) زوجة (فواز بوطويل) الأمل في تغيير الوضع بمجرد تفكيرها في إعلام أخيها للخروج به من هذا المأزق الذي يهدده لعلمها المسبق أن (عزيزة الجنرال) كلها شر ولا يُرجى الخير منها، يقول الراوي موضحا الأمر "تنحنح (سالم) فحدجته (عزيزة) بنظرات ثاقبة...وجلست (بدرة) مُحدِّقة في (كريم) كمن ينتظر النطق بقرار خطير...واستهوت الفكرة (كريم) فأسرع بالموافقة وانفضَّ المجلس...خرج (كريم) فشيَّعته (عزيزة) إلى خارج البيت...دخل (فواز) غُرفته تاركا أختيه في مكانهما وفي أعماقه يتبسم...ما الذي تريده (عزيزة) من كل ما فعلت؟ ...ولم تكلمه (بدرة)...وظلت الليل كله تبني وتهدم...لا شكَّ أن وراء الأمر سرا..."[30].

لتنجح بعد ذلك (عزيزة الجنرال) في إقامة قناة تواصل مع (كريم السامعي)، لتُرسي معها سيطرتها وتحكمها في إدارة الأحداث لصالحها دوما، إذ كل المؤشرات السردية السابقة جاءت موافقة تماما لبرنامجها السلطوي الذي خططت له وأسَّسته، لامتلاكها الأهلية اللازمة لإنجاحه: أولا بتدعيمها قطاع الثقافة بمالها الخاص وهو واجهة لكسب الرأي العام، وثانيا بإقامتها صلة مُصاهرة بينها وبين عائلة (خليفة السامعي)، لنجد في الأخير عدم تنفيذ (عزيزة الجنرال) لبرنامجها وفق الالتزامات التي قدَّمتها لـ(كريم) والمتضمنة في العقد الذي تربطه بها، لقيامها بخرق واضح جاءت نتائجه سلبية على (كريم السامعي)، لقول الراوي "على غير العادة رجع (خليفة) إلى البيت غداء وقد بَدَتْ على ملامحه مظاهر قلق واضطراب...سأل (نوارة) وهو يتوجه إلى الحمام عن (كريم)...ثنت ساعديها على صدرها وقالت باهتمام بالغ:

-لا أعلم عنه شيئا...يخرج صباحا ويعود ليلا لست متعودة على أن أسأله عن الأماكن التي يقصدها..."[31].

لنجد (بدرة السامعي) قد دخلت في إطار تحذيرها لأخيها (كريم) بين أمرين هما: السكوت عما يجري بين (عزيزة الجنرال) و(كريم السامعي) أم التدخل والمخاطرة بتأزيم العلاقات بين العائلتين حيث تقول "... لا شك أن وراء الأمر سراً...فكيف تمنع (كريم) من هذه المغامرة الخطيرة...هل تخبر أباها؟ ستشعل نار الفتنة حينئذ"[32]، ليكون النزوع إلى الاختيار الأول: وهو السكوت عن الأمر، والذي أدى في الأخير إلى انهيار كُلي لعائلة (خليفة السامعي) لعدة أسباب أولها انفصال (كريم) عن بيته بشكل متواصل لدرجة أثارت شكوك والده (خليفة)، لقوله "حالته هذه الأيام لم تعد تطمئنني"[33]، لتُلحق به في الأخير (عزيزة الجنرال) ضرراً كبيرا خاصة بعد أن أمرت ابنها

بتطليق زوجته (بدرة السامعي) وإرجاعها لبيت أهلها، ثم بعد دسِّ دليل إدانة يُورِّطُه لقول الراوي "كان (كريم) يؤكد لصاحبه الجديد أنه بريء وأن العدالة لا معنى لها إذا كانت تتهم الأبرياء لمجرد دلائل لا يدري كيف دُسَّت له"[34]، هذا الوضع الذي آل إليه حال عائلة (خليفة السامعي) يعكس طبيعة العلاقة مع (عزيزة الجنرال) ونتائجها، كونها مبنية على الخديعة والحيلة وخدمة المصالح الخاصة، خاصة بعد خرقها للعقد، ليتضح الحال على لسان (خليفة السامعي) نفسه الذي يقول "لم أمالك نفسي كان القلق غولا يضغط على كل أعصابي وحين فقدت الوعي نقلوني إلى المشفى حيث أفقت...ضاع الولد وضاعت البنت وضيعنا المزرعة..."[35].

لتتوزع علاقة عائلة (خليفة السامعي) بعائلة (عزيزة الجنرال) على ثلاثة مراحل هي: قبل / أثناء / بعد.

1-قبل: تتميز هذه المرحلة بالاستقرار.

2-أثناء: تتميز هذه المرحلة بالتذبذب كونها ممهدة لمرحلة الاضطراب.

3-بعد: تتميز هذه المرحلة بالاضطراب من أولها لآخرها.

لينتصر برنامج (عزيزة الجنرال) نا خاصة بعد سيطرتها على كل المنافذ التي كانت ستسبب لها المشاكل، بواسطة حيلتها ومكرها، إذ على المستوى المعارفي المتجسد هنا في القوة العقلية (المكر والحيلة)، والتي تتميز بها (عزيزة الجنرال)، لنفهم من هذا أن دقة التصرف والتخطيط المدروس في تسيير شؤونها وشؤون عائلتها خاصة مع المنطق الإقناعي الذي أخضعت له كل من (كريم) و(بدرة السامعي)، لتبدأ المواجهة مع فاعل آخر منفذ هو (فاتح اليحياوي) الذي يمثل فئة الطبقة المثقفة في مدينة عين الرماد، حيث وقفت (عزيزة الجنرال) ضده لما مثله من إعاقة لها ولمشاريعها، لقول الراوي واصفا حاله قبل / بعد المواجهة "كان (فاتح اليحياوي) منذ يفاعته ميالا للفنون ... فقد مارس المسرح والرسم وتعلم الموسيقى والغناء، ولكنه مذ دخل الجامعة كَبُرَ فجأة وشغف بالدراسات الاجتماعية وآمن بوجوب ثورة الناس من أجل تغيير واقعهم ... تعرَّض (فاتح اليحياوي) لانتكاسات كبيرة جعلته يعيد كل حساباته ويصاب بإحباط رهيب ويفقد الثقة في الناس جميعا فينطوي على نفسه"[36]، لوقوف السلطة ضده لنلاحظ أن حالته النفسية قبل النكسة تميزت بالفاعلية الايجابية نحو التغيير بمبدأ هو بمثابة عقد ائتماني فرضه على نفسه أولا ثم على من حوله ثانيا، كونه آمن أي وصل مرحلة الوعي بوجوب ثورة الناس من أجل تغيير واقعهم، ليسعى جاهدا إلى تحريك الفاعل الجماعي (سكان مدينة عين الرماد)، لتأسيسه مرسلا محركا من أجل ممارسة ضغطهم على (عزيزة الجنرال) ورئيس البلدية (مختار الدابة) = (السلطة القهرية) وحملهم على تأسيس برنامج سردي ضديد ينهض أساسا على العدل والحق والإنصاف في حل المشاكل التي تتعرض لها مدينة عين الرماد، ليقتنع سكان مدينة عين الرماد بشرعية مطالبه التي لاقت توافقا مبدئيا مع طموحاتهم ورغباتهم في التغيير نحو الأفضل خاصة بعد الحصار الذي فرض عليهم بسبب ممارسات (عزيزة الجنرال) السلطوية ورئيس البلدية (مختار الدابة) التعسفية، لتكون مطالبهم من مطالب (فاتح اليحياوي) التي تُنم عن قيم نبيلة دافع عنها

وتحمل لأجلها الضغوطات والاهانات، لأنها تصب في خانة إعادة الاستقرار للمدينة، يقول الراوي "بعدها بأشهر استولت (عزيزة الجنرال) على مدرسة قديمة وسط المدينة لتشيِّد عليها دارة ضخمة...تناقلت الشفاه رفضا جبانا...صدح (فاتح اليحياوي) بالرفض...سارت الحشود خلفه من شارع لشارع...وقفوا أمام البلدية عاصفة هوجاء تصرخ بسقوط (مختار الدابة) و(نصير الجان) و(عزيزة الجنرال)..."[37]، إذ على الصعيد السردي تتضح جليا البنية الجدالية هنا الممثلة في: المجتمع / السلطة في تشكيل مواجهة لينجح (فاتح اليحياوي) مؤقتا في تعبئة الرأي العام كفاعل جماعي منفذ ضد سلطة رئيس البلدية و(عزيزة الجنرال).

ومن الواضح أن اتخاذ قرار المواجهة وتنفيذ الحركة الاحتجاجية ميدانيا مرهون في وجوده بمجموعة من الجهات والتي دخلت في تشكيل أهلية (فاتح اليحياوي) كقائد عام في الجملة، كونه أسَّس نفسه فاعلا في برنامج التغيير، لإدراكه الجيد كمثقف واعي وجود شرخ كبير السلطة والمجتمع لتكون الحركة الاحتجاجية الأولية كما يصفها الراوي بقوله "حشدٌ من المواطنين ينتظرون في طابور كبير أمام مكتب (مختار الدابة) وقد بدا القلق على وجوههم واضحا جليا...واختلطت الأصوات الرافضة حانقة...وما فتئت أن خمدت وأحد المواطنين يصيح فيهم: يا جماعة نعود مساء إمَّا أن يستقبلنا أو نحرق البلدية"[38]، ففي هذه اللحظة نجد امتلاك سكان مدينة عين الرماد ة في التغيير والذي أصبح الحل الوحيد لهم، خاصة باستعمالهم الحركة الاحتجاجية التي تُسمع أصواتهم للمسؤولين، وثورة السكان هنا تشكل "صورة أكثر تعقيدا ما دام يعني في نفس الوقت ما يسمى حاليا بالذات المضادة"[39]، ليتمظهر وجوب القيام بالفعل والرغبة في التغيير جليا لدى هؤلاء السكان لكن بشكل مؤقت بسبب خروجهم من العقد الائتماني الذي اتفقوا عليه سابقا مع (فاتح اليحياوي) ليبقى هذا الأخير الفاعل المنفذ الوحيد في المجموعة الذي حافظ على عقده لإيمانه الشديد كمثقف بهذا الحل ليخبره صديقه (كريم السامعي) مبينا حقيقة الذين انفضوا من حوله قائلا "ألم أُخبرك يا (فاتح)؟ الشعب شعب لهو...حتى الذين جاؤوا من أجلنا باعونا في آخر لحظة، ألم ترهم"[40] ليكون خرقهم للعقد ورفضهم في آخر لحظة دخولهم في مشروع (فاتح اليحياوي) الضديد (ضد السلطة القهرية) بو تأمين على حياتهم من بطش سلطة (عزيزة الجنرال) و(مختار رئيس البلدية) خاصة بعد مشاهدتهم لردَّة فعل التي قامت بها السلطة باستعمالها العنف واعتقال (فاتح اليحياوي) وسجنه بتهمة التجمهر والتحريض وإحداث الفوضى، يقول الراوي "... تدخلت قوات مكافحة الشغب ... فرَّقت المتظاهرين واعتقلت (فاتح اليحياوي) ... تفرقت حوله الجموع ... شَهِدَ ضدَّه بعضهم ... اتهموه بتحريضهم ومغالطتهم ... سجن أشهر وخرج ليدخل سجنا أعمق"[41]، ليبطل مفعول رغبتهم وتتعطل قدرتهم بعد ذلك خوفا من نتائج مماثلة قد تلحق بهم بعد المواجهة، لتنجح (عزيزة الجنرال) في إيقاف زحف (فاتح اليحياوي) بقطع الطريق عليه من أوله، ثم سجنه ليدخل بعد ذلك في عزلة جعلت منه فاعلا سلبيا بعد أن كان كله نشاط وحيوية.

وبشلِّ قدرة الفاعل الجماعي على كل محاولة تهدف إلى قلب نظامها والتي كان لها أثر فعال في إبطال مفعول تحريك (فاتح اليحياوي) للعامل الجماعي سكان مدينة عين الرماد لتبدأ معالم برنامج (عزيزة الجنرال) في

الاتضاح أكثر، خاصة بعد تحطيمها للبرنامج السردي المضاد الأول والذي كان الهدف منه القضاء على السلطة القهرية الممثلة في رئيس البلدية و(عزيزة الجنرال)، وبامتلاكها القدرة على الأداء القدرة على إعادة الأوضاع كما كانت، تمكنت من الوصول لتحيين مشروعها مؤقتا _كونه انهار في الأخير وكما ذكرنا سابقا على يد الضابط (سعدون)- وذلك لأسباب منها: ميزان القوة / القدرة السلطوية، وهو للأسف جاء في غير صالح (فاتح اليحياوي) المثقف المهمش، كما نجد أهليتها في برمجة ردة فعل على الأحداث التي نادت بسقوطها، لأن نتائجها محسومة لها مسبقا خاصة بعد إلقاء القبض على (فاتح اليحياوي) وسجنه، لتَهْزِمَ القوة المادية = (عزيزة الجنرال) / القوة العقلية = (فاتح اليحياوي) المثقف.

كما نجد فاعل آخر هو ضحية لممارسات (عزيزة الجنرال) وهو زوجها (سالم بوطويل) الذي ظهر منذ البداية مضطرب لا دور له في تسيير شؤون الأسرة، كون زوجته مارست عليه أسلوب التسلط ليغيب معه الحب وحتى الأمان النفسي لغياب إمكانية المواجهة وفرض الوجود، كقول الراوي واصفا علاقتهما كزوجين "لم تأبه (عزيزة) بدخول (سالم) عليها وقد دخل يحمل قفة صغيرة ... وقلل (سالم) من اندفاعه ونسي كل ما جاء من أجل قوله"[42]، ليقوِّم هذا المقطع السردي البرنامج التسلُّطي الذي سعت (عزيزة الجنرال) إلى تحقيقه حتى على حساب أسرتها وخاصة زوجها (سالم بوطويل) لينهض هذا التقويم على القيم السلبية التي أفرزتها ممارستها السلطوية، كانفصال الزوج عن زوجته وانشغاله بخيالات الماضي هروبا من الواقع وإفرازاته، لأن الماضي بالنسبة له مثل مرحلة الطفولة التي عاشها وسط جو يغمره دفء الوالدين وحنانهما عكس ماضي زوجته (عزيزة الجنرال) الأسود، لقول الراوي " أما (سالم) فنشأ في جو أسري مختلف تماما، تَقدَّس فيه أمه أباه الذي يقدس بدروه جدَّه ... وكانت أمه دائما تتخذهما المثال المحتذى: كان جدُّك كان أبوك ... وكانت أم (سالم) تدلِّله، وتخاف عليه"[43]، في حين نجد ماضي (عزيزة الجنرال) كله مآسي ما خلق لها نقطة سوداء في حياتها أثّرت سلبا على من حولها خاصة زوجها (سالم بوطويل) لذي ضاق ذرعا من ممارساتها الانتقامية، لقول الراوي واصفا محيطها الذي نشأت فيه عندما كانت صغيرة " وانكفأت على وجهها تتذكر أباها وحشا له مخالب وأنياب يمتص دم أمها وهي تنتفض كغزالة لا حول لها ولا قوة ... وأجهشت تبكي ..."[44]، لتكون مُحصِّلة المستويين السابقين: ماضي (عزيزة الجنرال) / ماضي (سالم بوطويل)، تقويميا انعكاسيا أي طفولة (عزيزة الجنرال) كانت سلبية وحاضرها يعد إيجابيا على عكس زوجها (سالم بوطويل) الذي عاش طفولة سعيدة في الماضي لكن حاضره كان سلبيا، وهذا السبب هو ما أدى لحدوث شرخ في عملية الاتصال بين الزوجين.

ا يكون الوضع بمثابة محصلة للعملية التحويلية المنتجة للوضع النهائي بواسطة أفعال الشخصيات المضادة التي أسهمت بشكل كبير في إقرار وضع نهائي أدى إلى كشف زيف الذات (عزيزة الجنرال)، ليكون الانجاز من حليف سكان مدينة عين الرماد.

الهوامش:

1- أحسن مزدور: مقاربة سيميائية في قراءة الشعر والرواية، مكتبة الآداب القاهرة، مصر، 2005، ص.10

2- تزفيتان تودوروف: ميخائيل باختين (المبدأ الحواري)، تر: فخري صلاح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1996، ص 127.

3- مفتاح محمد: التشابه والاختلاف (نحو منهاجية شمولية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1996، ص35.

4- عز الدين جلاوجي: الرماد الذي غسل الماء، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص.44

5- ميشال فوكو: حفريات المعرفة، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1987، ط2، ص.92

6- نهى بيومي: (النظام الثقافي الاجتماعي في الرواية)، ثقافات، عدد 05، شتاء 2003، كلية الآداب، جامعة البحرين، البحرين، ص ص 95، .96

7- عز الدين جلاوجي: الرماد الذي غسل الماء، مصدر سبق ذكره، ص82.

8- المصدر نفسه، ص.105

9- المصدر نفسه، ص.139

10- المصدر نفسه، ص.82

11- المصدر نفسه، ص.123

12- عبد العالي بوطيب: مستويات دراسة النص الروائي، مطبعة الأمنية الرباط، المغرب، 1999، ص.66

13- عز الدين جلاوجي: الرماد الذي غسل الماء، مصدر سبق ذكره، ص .144

14- المصدر نفسه، ص.93

15- المصدر نفسه، ص.89

16- المصدر نفسه، ص.134

17- المصدر نفسه، ص.156

18- محمد أحمد المسعودي: (الخطاب ودوره في تشكيل الشخصية الروائية)، مرجع سبق ذكره، ص.588

19- عز الدين جلاوجي: الرماد الذي غسل الماء، مصدر سبق ذكره، ص156.

20- المصدر نفسه، ص.155

21- المصدر نفسه، ص.157

22- المصدر نفسه، ص.163

23- المصدر نفسه، ص.164

24- المصدر نفسه، ص.164

25- عبد العالي بوطيب: مستويات دراسة النص الروائي، مرجع سبق ذكره، ص.66

26- عز الدين جلاوجي: الرماد الذي غسل الماء، مصدر سبق ذكره، ص .153

27- المصدر نفسه، ص.15

28- المصدر نفسه، ص.81

29- المصدر نفسه، ص.123

30- المصدر نفسه، ص.123

31- المصدر نفسه، ص.125

32- المصدر نفسه، ص.123

33- المصدر نفسه، ص.126

34- المصدر نفسه، ص.138

35- المصدر نفسه، ص.141

36- المصدر نفسه، ص.130

37- المصدر نفسه، ص.93

38- المصدر نفسه، ص.103

39- سعيد بنكراد: مدخل إلى السيميائيات السردية، منشورات الاختلاف الجزائر، 2003، ص.53

40- عز الدين جلاوجي: الرماد الذي غسل الماء، مصدر سبق ذكره، ص .93

41- المصدر نفسه، ص.93

42- المصدر نفسه، ص.85

43- المصدر نفسه، ص.83

44- المصدر نفسه، ص82.